هَـــــزْل . . . !

للأســـتاذ محمود محمد شاكر

يخيل إليَّ أن بين قلمي والليل صبابةً أو هوًى قديماً . فطالما رأيتني أعقد الرأي والعزمَ نهاراً على شيء أجعل الكتابة له قيداً إذا جنّ الليلُ ، فما أكاد أحلُّ القلم وأبدأ حتى أرى القلم ينفلت عليَّ رأيي وعزمي ويمضي إلى حيث شاء كما شاء ، فما يُبقي من آية النهار المبصرة شيئاً إلا طمسَهُ أو أزاله أو نكّر من معارفه . وما أظنّ إلا أن كل كاتب قد ابتُلِيَ من قلمه بمثل الذي ابتُليتُ به أو بشيء يقاربه . ومن أعسر شيء ألقاه من هذا القلم أني ربما بدأتُ الكتابة ، فإذا هو مطواعٌ حثيثٌ ماضٍ لا يتوقف ، وإذا كلمةٌ مرسلةٌ إليه ليقيدها ، فإذا هو كالفرس الحرون قد ركب رأسه وأبى إباءً ، فلا أزال أترفقُ به وأستحثُّه وأديره بين أناملي ليلين ما استعصى من طباعه ، ولكنه يأبى إلا لجاجةً وعناداً ، ثم ينزع إلى وجه غير الذي أردتُ ، وإذا أنا مضطر أن أعود من حيث بدأ هو لا من حيث أردتُ أنا أن أبدأ ، وعندئذٍ يمضي على هواه وعلى ما خيّلتْ . وقد عرفت ذلك من عاداته قديماً ، فما يكاد يفعل ذلك حتى أثوبَ به إلى ورقة أخرى فأبدأ الكتابة من حيث أرادُ ، وأمري لله .

أفترانى أخطئُ إذا أنا زعمت أن لقلم الكاتب شخصية مستقلة بل منفصلة تكاد أحياناً تغلب حاملَه على رأيه وعلى تقديره وعلى عزائمه ؟ أم الإنسان المفكر صاحب العقل شيء آخر غير الإنسان الكاتب حامل القلم ؟ فهو حين يفكر يُعطى أفكاره من الحرية والسَّعة والحماسة ما يجعلها أقدر على التصرف في وجوه الرأي وشعابه ونواحيه ، فإذا حمل القلم ليملي عليه بعض أفكاره ، استقل قلمه بالفكرة بعد الفكرة يزنها ويقدرها على قدر عقله هو لا على عقل حامله ، فربما عرض له أن ينبذ منها أو ينتقصها أو يتجافى عن طريقها فيسدَّ عليها المسالك ويضرب عليها بالأسداد ، ثم يشرع إلى وجه غير الذي يُرَاد له ؟ أم الإنسان إذا فكر ثم أراد أن يكتب وحمل القلم صار هو نفسه شخصاً آخر غير الإنسان المفكر بغير قلم محمول ؟ كل ذلك ممكن ، ولكنه على كل حال متعبةٌ وشقاءٌ لحامل القلم ما بعده شقاء ولا تعب .

وأعرف رجلا من أصدقائي الكتاب ، إذا حمل القلم وكتب كلمات ألقى قلمه ضجراً يائساً متململا من عُسر المدخل الذي دخل به على ما أراد ، فإذا عاد عاد القلم إلى جماحه وتمذره ، ولا يزال كذلك مرة بعد مرة حتى يرى قلمه قد رضي وأطاع ومضى إلى آخر حرف في المقالة غير متوقف ولا متلعثم ، وقد قال لي : إنه ربما مضت الأيام على ذلك الحران ، مع أنه يعلم مستيقناً أن الفكرة كانت قد اختمرت واستوت وتهيأت له من قبل أن يحمل القلم بأيام ، وأنه كان يظن أنه لن يحمل قلمه حتى يراه قد انساب انسياباً لا يعوقه شيء ، فإذا فرغ من كتابة ما أراد لم يجد أنه زاد قليلا ولا كثيراً عما كان فكّر فيه وعزم على كتابته . فأي سر هذا الذي ينطوي عليه القلم حتى يكون هو المتصرف الذي لا يردّ لما أرادُه أمر ؟ قد تقول : إنه الحالة النفسية يكون عليها الكاتب ؛ وقد تقول : إنه الجو الذي تعيش الكلمات التي يبتغي استنفارها من مكامنها ؛ وقد تقول أشياء كثيرة من هذا وأمثاله ، ولكن يبقى أنك لا تكاد تميز بعدَ الكتابة شيئاً من الاختلاف عما كنت قد فكرتَ فيه وأدرته في نفسك وعرفت أنه قد أطاع لك ؛ فمن أين جاء هذا التوقف العجيب الذي تعتاده بعض الأقلام ؟ !

وأنا قد جربت نفسي ، فرأيتني إذا أردت أن أكتب أحياناً شعراً يدور في قلبي ويلح على خاطري ، فأمسكت أي الأقلام وقعتْ عليه يدي ، فإذا هو عصيٌّ عنيدٌ لا تلين له سنٌّ — أو قناةٌ على ما يقولون — فإذا ألقيتُه وحملتُ القلم الذي اعتدتُ زماناً أن أكتب به الشعر ، أو الذي اعتاد هو أن يكتب لي الشعر ، انطلق على سجيته طيّعاً رفيقاً سهل المقادة حسَن التهدّي إلى قبيلة الشعر . فأحبُّ الآراء إليَّ أن أجعل للقلم شخصية منفصلة تعين الكاتب أو تمانده ، فذلك أشبه بالسلطان العريض المظيم الذي فرضته الأقلام على الحياة ، والذي لولاه لعاش الإنسان ومات وكأنه لم يوجد قط .

***

كنتُ أردتُ أن أكتب شيئاً عن المتنبي وعن حكمته

وبصره بالحياة وبالناس وبما يعتلج فى القلوب على اختلافها ، وذلك لحديث جرى بينى وبين أحد ضيوف مصر من أهل العراق . وأردت أن أقارن بين مايسمونه شعر الحكمة ، وبين حكمة المتنبى فى شعره ، وأين وقع منه سائر الشعراء ؛ فما كدت أبدأ حتى عرضت لى أبيات المتنبى التى يقول فيها :

إنما أنفسُ الأنيس سباعٌ يتفارسنَ جهرةً واغتيالا
من أطاق التماس شىءٍ غلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا
كل غادٍ لحاجةٍ يتمنى أن يكون الغضنفر الرئبالا

وذكرت عندئذ ذلك البيت الذى أحيته أم كلثوم حين غنت فى شعر شوقى :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قومٍ منالٌ إذا الإقدام كان لهم ركابا

وأردت أن أعرض للفرق بين القولين ، وبين العبارتين ، وبين القوتين ، وبين البيانين . فأى دقة وأى هداية كانت لهذا الرجل الفذ الذى لو احتلت على بعض ألفاظه أن تجد لها بديلا فى كلامه لأفسدت معنى البيت وقوته وعبارته وبيانه ! نخذ مثلا لفظ « الأنيس » ، وتخير ما شئت من حروف اللغة وضعه حيث وضع المتنبى لفظه ، واقرأ وانظر وتدبر ، هل يليق أو يسوغ أو يلين أو يستقر فى مكانه من البيت ؟ ضع مكانه « الإنس » أو « البشر » أو « الناس » أو « الأنام » أو ما شئت ، سواء استقام الوزن أو لم يستقم ، تجد الفرق بين الاختيارين عظيما واسعاً . فهو قد اختار اللفظ والبناء الذى يدل دلالة على المؤانسة والرقة والتلطف وإظهار المودة والظرف وحلاوة الشمائل ولين الطباع ، ليظهر لك أنها تخفى تحت هذا كله طباعاً وحشية ضارية مترفقة حيناً وباغية أحياناً ، فهذه للصورة التى أرادها باللفظ الذى لا يستغنى عنه فى دقة الصورة وحسن بيانها . فأين هذا من ضعف شوقى الذى لم يزد على أن جمع كلمات رُصَّ بعضها إلى بعض لا حاصل لها ولا خير فيها . وما قيمة ذكر الركاب ، مع الإقدام والاستعصاء والمنال ؟ وأما البيت الأول « وما نيل المطالب » ، فهو كلام عامى دائر على الألسنة ، ولا فضل فيه ، بل هو أشبه بتقرير ضعيف عن معنى ليس بشىء .

وعندئذ عرض لى أنا أن هذا الفعل من شوقى هزلٌ للمعانى ، وهزل فى طلابها ، وهزل فى إدراكها على وجهها . وإذا هذا القلم يسألنى — أو يأبى إلا أن يذكرنى — بأن الهزلَ الذى كان فيه شوقى خير من كل هذا الهزل الذى أصبحنا وأمسينا نعيش فيه . فالدنيا تجدُّ من حولنا ونحن نهزل ، ولا نكاد نجد من كبار رجالنا أحداً قد نهض به جَدُّه وجِدُّه فى ناحية إلا وقد سقط به هزله فى ناحية أخرى . وأن أشدّ البلاء من مثل هذا الرجل أن يُلبس عليه حتى يظن أن هذا الهزل هو أجدُّ الجدّ ، لأنه ظن أنه ما بلغ إلا بجدٍ كان فيه طبيعة مغروزة فظن حتى صار ظنه حقاً عنده .

ولسنا نحب أن نطعنَ على الرجال بالحق فضلا عن الباطل ، ولكن بلادنا فى كل مكان من مصر إلى الشام إلى لبنان إلى فلسطين إلى العراق إلى بلاد الهند إلى أندونسيا إلى الجزائر وتونس ومراكش ؛ قد أحست شعوبها أن ساعة الجِدّ قد آذنت ودنتْ ، وأنها ساعة إذا أفلتت فلن تعود إلا بلاء وعناء وشقاء . ومع ذلك فالرجال والزعماء وأصحاب الرأى أيضاً ، وهو أشد البلاء ، قد ركَّبُوا فى رؤوسهم أذناً من طين وأذناً من عجين — كما يقول المثل العامى — فما يسمعون حسيس النار التى تشتعل فى صدور أبناء هذا الشرق إلا كحشرجة الميت ، فهم يعالجون أمورنا على صورة من اليأس والملل ، كأنما يرجون الظفر بأى شىء كان ، ما داموا يحسبون أنهم إذا رفعوا الأعين الناس هذا الذى ظفروا به ، وقالوا لهم لقد ظفرنا لكم بخير ماترجون ، صدّقهم الناس وصفقوا لهم ومشوا فى ركاب مجدهم ، وجأروا إلى الله بالشكر على ما أنعم على أيديهم . فهم ليسوا طُلاَّب حق ضائع بل طُلاَّب مجدٍ كاذب ، يظنون أنهم يختمون به أعمالهم الصالحات .

فأى هزل كهزل رجال الهند مثلا ، وهم الذين عركوا ساسة الإنجليز مئة وخمسين عاماً أو تزيد ، ولقوا من خداعهم وكذبهم وتغريرهم وقسوتهم وشناعة أحقادهم ما لاينسى مواجعه إلا غِرٌّ غافل ؟ وإذا الذين كانوا بالأمس نار الثورة وضرامها قد رضوا أن يستمتعوا بالحكم ويصيروا وزراء فى شعب مستعبد تدوسه أقدام الغاصبين . وهو لا يزال يسمع منهم أن الهند جزء لا يتجزأ من هذه الإمبراطورية التى لا تغيب الشمس عن

أملاكها - فأى هزل أسخف وأبعد فى الغفلة والسذاجة وسوء التقدير من هذا الحكم ؟ وفيمَ يدلس هؤلاء على إخوانهم الذين لا يعرفون كما يعرفون من خبايا النيات البريطانية التى تدسّ لهم السمّ فى الدسم ؟ أو لم تكفهم العبرة التى لا تزال أختهم مصر ترفل فى أغلالها منذ سنة ١٩٢٤ إلى يوم الناس هذا ، حين قبل رجال الثورة أن يكونوا للناس حُكاماً تحت ظلال الغصب والاحتلال ؟

وأى هزل أشد على النفس الشاعرة مرارة وغضاضة من رجال قاموا من غفلتهم ومنامهم يسمعون الشعب كله ينادى « الجلاء ووحدة وادى النيل » ، أى ينادى بالحق الطبيعى الذى لا يحتاج إلى تفسير ولا بيان ولا شروط ، والذى ظلت مصر الصابرة تهمس به أحياناً وتصرخ به أحياناً أخرى منذ سنة ١٨٨٢ ، وإذا هم يطالبون بالذى يطالب به الشعب ، ولكنهم لا يلبثون إلا قليلا حتى يرضوا لأنفسهم أن يدخلوا من باب المفاوضة مع البريطانيين ، فلما دخلوا داروا فيها كما تدور بهم ، وهم كانوا أولى الناس بأن يعرفوا بعد طول التجربة ماعرفه الشاب مصطفى كامل إذ قال لهم : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، لأنه أدرك أن المفاوضة معناها أن ينزل الضعيف عن أكثر حقه للقوى الطائش الباغى ؛ فما ظنك به وهو ليس بقوى طائش باغ وحسب ، بل أيضاً منصور مظفر قد خرج من الحرب وهو يظن أن الدنيا له ، وأنه وإن كان ضعيفاً بين الأقوياء ، إلا أنه هو الجبار العظيم بين الضعفاء ؟ وأنه سوف ينال من الأقوياء والضعفاء بحيلته وسياسته ما لا ينال بالعنف ، فلذلك آثر طريق المفاوضة ، واتخذ أعوانه ليتيموا الشعب إليها حتى يهدأ ويسكن ويظن أنه بالغ ما يريد ؛ لأن الدنيا تغيرت ، ولأن العالم فى حاجة إلى نظام جديد ليس بينه وبين القديم شبه . وظلت المفاوضات أشهراً وهى تسير قدما على عكازتين كأنها هى الأخرى من ذوى العاهات الذين خلفتهم الحرب عُرجاً وظُلَّماً أو شراً من ذلك . فأى هزل هذا ؟

أى هزل هذا الذى يؤمن به رجال يخالهم الناس من أصحاب العقل والحكمة وسداد الرأى فى المعضلات ؟ وماذا فعلوا منذ بدأوا إلا أن قدّم الإنجليز مشروعاً وقدموا مشروعاً ؟ ولا يزالون على ذلك إلى يومنا هذا . فهم إنما يتقارضون كلاماً لا يغنى عنهم ولا عن مصر . وفيم يتفاوضون ؟ ألا إن الحق بيّن والغصب بيّن ، فقولوا لأصحابكم الذين تفاوضون إن مصر لا تريد إلا تحقيق هذه الكلمات : « الجلاء ووحدة وادى النيل » . إننا نريد معرفتنا وسودانا ، إننا لا نريد منكم إلا أن تدعونا وشأننا ، اخرجوا من بلادنا ، فارقونا . قولوا ذلك وعلموا الشعوب بإيمانكم وإصراركم أن تكون أشد إصراراً وإيمانا وأوفى شجاعة وأقدر صبراً ، وإلا فسوف يأتى يوم يجدّ فيه الشعب جدّه ، فإذا الذى ظننتم أنه مجد لكم هو أبغض شىء إلى الشعب ، واعلموا أنه لا مجدَ إلا بفعال ، والهزل مخيبة للفعال ، فجدّوا إذن وعودوا إلى الانجليز من حيث بدأوا بكم .

إن هذا الذى يحدث فى الهند وفى مصر حسرة للنفوس تطوى تحتها أسوأ مغبّة ، فهل من رجال ينقذون بلادهم من شرّ هذه الموبقة المستطيرة ؟ إن الحكام والمفاوضين طُلاّبَ المجد لن يذوقوا لذة المجد حتى يكون الشعب هو الذى يذوق لهم طعمه ، فإذا استكرهه ، فلا تخدعنهم الحلاوة التى يجدونها فى ألسنتهم ، فإنها مرارة الدهر وذلّ الأبد . ورحم الله المتنبى :

من أطاق التماس شىء غلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا

فعلام المفاوضة ، وفيم السعى إلى الحكم ؟

محمود محمد شاكر

قريباً تصدر « مطبعة الرسالة » كتاب :

اللغـــات فى القرآن

كتاب طريف نادر

يتضمن لغات خمسين قبيلة

من القبائل العربية وجدت فى القرآن

لا توجد فى مصدر آخر . . .

رواية عبدالله بن الحسين بن حسنون المقرئ المتوفى ٣٨٦ هـ

حققه وصححه

صلاح الدين المنجد